٧ ـ الفن

للكاتب الفرنسي بول جيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

الفصل الخامس — الرسم واللون

كان رودان يرسم كثيراً مستعيناً بقلم الحبر أحياناً وبقلم الرصاص أحياناً أخرى . وكان في أول الأمر يرسم الخط الخارجي بالحبر ثم يضع الظلال بريشة . وتظهر مثل تلك الرسوم المائية كأنها أخذت عن نماذج بارزة أو منحوتة . وما كانت تلك الرسوم في جملتها إلا رؤى التمثال وأخيلته . أما في العهد الأخير فكان يستعمل القلم الرصاص ليرسم الجسم العريان ثم يضع ألوان اللحم بالريشة . وهذه الأخيرة أبسط من الرسوم السابقة ، والأوضاع فيها أقل تحديداً ، ولكنها أكثر حركة وأوفى نشاطاً . فترى في بعض الحالات الجرة أو الخط قوياً عنيفاً كأن به جنة ، ترى جسماً بأكمله وقد نظمته جرة واحدة من القلم الرصاص ـ ونعم تلك الرسوم عن ذلك الجزع المقدس الذي يعترى الفنان حينما يخشى أن يفوته أو يفلت منه تعبير طارئ . أما ألوان اللحم فتوضع بسرعة وقوة وتتم في ثلاث أو أربع لمسات ، وأما التمثيل فينشأ عن جفاف بقع الألوان حيث تتخلف عند كل لمسة نقط عديدة لا يتسنى للريشة العجلى جمعها والتقاطها . وهذه الرسوم الأولية تمسك وتثبت الإشارات والإيماءات الخاطفة ، وتسجل الحركة المتتابعة التي قلما تلمحها العين لأكثر من نصف ثانية . وهي لا تطلعك على الخطوط والألوان فحسب ، بل تريك الحركة وتشعرك الحياة أيضاً . إنها أخيلة المصور أكثر منها أخيلة المثال .

وأخيراً توقف رودان عن إجراء التمثيل بالريشة وذلك لمداومته على استعمال القلم الرصاص ، فهو يقتصر على مسح الخط الخارجي بأصبعه فينشأ عن ذلك لون فضي يغشى الأجسام كأنه الغلالة الرقيقة ، ويضفي عليها جمالاً رائعاً يجعلها تبدو كأنها غمست في الشعر والخيال .

وتلك الدراسات الحديثة أجمل دراساته على ما أعتقد . فهي مضيئة ، تزخر بالحياة وتفيض بالسحر .

وعند ما كنت أنظر مع رودان في بعض تلك التصاوير قلت له : « كم تختلف هذه عن تلك التصاوير الكاملة المنمقة التي تصادف هوى الجمهور ؟ » فقال :

القرآن الكريم والحديث الشريف غذاء اللغة ومعينا للأدب ، وما زالوا يحرصون على سلامة اللغة وبقائها ليبقى الدين ويبقى القرآن الكريم . وأي ضير في أن يكون للغة علاقة بالدين ؟ أيريد الأستاذ أن يتهاون أبناء دار العلوم باللغة فلا إعراب ولا فصاحة ولا تحرز من أن تغشو الكلمات الأعجمية وإن استطعنا وضع معانيها من لغتنا العربية كما صرح بذلك في كتابه حتى يصبح القرآن غريباً في هذه اللغة وهو منها الروح الملهم والمدد الذي لا يغيض ؟ أم يريد ألا يدرس أبناء دار العلوم دينهم ولا يعلموا فيما بعد تلاميذهم ؟

— ٩ —

« وقد كان نابليون يصف الأدباء بأنهم تجار الكلمات ، ولأبي تمام شطرة من بيت كثيراً ما تذكر هي :

« السيف أصدق أنباء من الكتب »

والواقع أن أبا تمام لم يقل كلمة هي أبعد عن الصحة والحقيقة من هذه الشطرة لأن السيوف لا تتحرك إلا للكلام الذي سبقها ... » ص ٨٨

فهم أن أبا تمام يفضل الحرب والقسوة على الثقافة ، كنابليون ولكن الحقيقة أن الشاعر يريد كتب المنجمين الذين أرادوا أن يعوقوا المعتصم عن فتح عمورية ، والتنجيم خرافة ، فلا تثريب على الشاعر ولا وجه للومه ، والشاعر يقول في القصيدة نفسها :

والعلم في شهب الأرماح لامعة
وفي الجديدين لا في السبعة الشهب

مشيراً إلى خرافة المنجمين .

(يتبع)

أحمد محمد الحوفي

المدرس بالعيدية الثانوية

« حقاً إنها التفاصيل والدقائق الميتة الخالية من التعبير ، والحركة الزائفة المتكلفة هى التى تستهوى الجهال وتطربهم . فالعامة لا تستطيع أن تدرك كنه تعبير قوى لا يحفل بالدقائق والتفاصيل التى لا فائدة منها ويعنى بحقيقة المجموع كله . نعم لا تستطيع السوقة أن تدرك شيئاً من تلك اللاحظات الصادقة التى تنأى بنفسها عن الأوضاع المسرحية المفتعلة والتى تعنى بأحوال الحياة الحقيقية البسيطة ذات الأثر البالغ فى النفس

إن من الصعب تصحيح الأغلاط الشائعة عن موضوع الرسم . فمن الخطأ البين أن يظن امرؤ أن الرسم جميل فى حد ذاته . إنه ليس جميلا إلا بما يعبر به عن الحقائق الصادقة وعن المشاعر العميقة . يعجب الجمهور بفنانين يملكون ناصية فنهم بلا مراء ولكنهم يزوقون وينمقون خطوطاً إنشائية خالية من الدلالة ، ويثبتون مرسوميهم فى أوضاع متكلفة غير طبيعية ، ولكنها تعد فنية لأنها تشبه أوضاع المُثُل الإيطالية الذين يعرضون أنفسهم على أبواب المراسم . وهذا ما يسمى غالباً بالرسم الجميل ، وما هو فى الحقيقة إلا « خفة يد » تعجب البلهاء الحمقى .

وفى الواقع يوجد رسم فى الفن كما يوجد أسلوب فى الأدب ، أى أن الرسم فى الفن هو بمثابة الأسلوب فى الأدب . فالأسلوب المزوق الذى يترك أثراً فى النفس أسلوب ردىء . وأما الأسلوب الجيد الرصين فهو الذى يستخفى ويتوارى كيما يوجه القارئ كل اهتمامه إلى الموضوع الذى هو بصدده وإلى العاطفة المصورة .

فالفنان الذى يزوق رسومه والكاتب الذى يصبو لامتداح أسلوبه كلاهما كالجندى الذى يزين كوته بالريش ولكنه يتهيب الذهاب إلى المعركة ، أو كالفلاح الذى يشحذ ويجلو سكة المحراث بدلاً من أن يقوم ويفلح بها الأرض .

قد لا يخطر ببالك أن تمتدح الرسم أو الأسلوب ذا الجمال الصادق لأنك تؤخذ بأهمية كل ما يعبران عنه ، ومثل هذا يقال عن اللون أيضاً . وفى الواقع لا يوجد أسلوب جميل أو رسم جميل أو لون جميل ، وإنما يوجد جمال واحد فقط هو جمال الحقيقة السافرة المتجلية . فعند ما يتمخض عمل عظيم ـ أدبياً كان أو فنياً ـ عن حقيقة جلية ، أو عن فكرة عميقة ، أو عن شعور قوى فياض فمن البدهى أن يكون الأسلوب أو الرسم أو اللون بالغاً منتهى الإجادة والسمو ولا تكون تلك الصفات إلا نور الحقيقة منبعثاً من مصباحها .

يعجب الناس رسوم رفائيل بحق ، ولكن يجمل بهم ألا يعجبوا بها لذاتها أو لاتزان خطوطها اتزاناً بارعاً ، وإنما يعجبون بما تنطوى عليه من المعانى . وأما محاسن هذه الرسوم وكل ما يدعو إلى الإعجاب بها فتنحصر فى وداعة الروح وداعة حلوة رأتها عينا رفائيل وسفرت معبرة عن نفسها على يديه ، وفى الحب الذى يغمر نواحى نفسه والذى يفيض من قلبه على الطبيعة بأسرها .

ولقد حاول الكثيرون ممن تنقصهم روحه أن يستعيروا موسيقية الخطوط والحالات التى صور عليها أشخاصه فلم ينتجوا إلا مقلدات غثة لأعمال نابغة أورينو العظيم[1] .

وفى رسوم ميشيل أنجلو لا يعجبن المرء بالطريقة التى انتهجها أو بالنتوءات القوية أو بالتشريح البارع ، ولكن بقوة هذا الفنان الزاخرة . أما مقلدوه الذين تعوزهم روحه والذين نسخوا فى لوحاتهم أوضاعه القوية الوطيدة ، وعضلاته المنتفخة ، فقد باءوا بالفشل ووضعوا أنفسهم موضعاً كله شين وسخرية .

وإن ما يصح أن نعجب به من ألوان تيتيان Titian هو ما تقدمه لنا من المعانى لا بانسجامها القليل أو الكثير . فليس لألوانه جمال حقيقى إلا بما تتضمنه من سَيْدُودَة جليلة شاملة . ويظهر الجمال الحقيقى لألوان فيرونيز فى قدرتها على إبراز حفلات النبلاء الرشيقة الأنيقة بألوان فضية موسيقية ساحرة .

وأما ألوان روبنز (Rubens) فلا قيمة لها فى حد ذاتها ويكاد يكون جمالها المتوهج هراء لولا انطباعها بطابع الحياة والبهجة والسرور والشعور القوى العميق .

ولا أظن أنه يوجد عمل فنى واحد يرجع جماله إلى اتزان خطوطه أو تهويل ألوانه فقط أو إلى أنه يسترعى العين وحدها . خذ مثلا النوافذ ذات الزجاج الملون التى يرجع عهدها إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فهى إذا ما سحرتنا بألوانها الزرقاء المخملية ، أو بحنان ألوانها البنفسجية ، أو بحرارة ألوانها الحمراء ، فما ذلك إلا لأن تلك الألوان تفصح عن سرور خفى أمل صانعوه البررة الأتقياء أن يحظوا به فى سماء أحلامهم . وإذا ما جاءت بعض

(١) رفائيل سانزيو ، وأربينو بلدته .

قطع القاشانى الفارسى المزينة بأزهار فيرورية اللون آية من آيات الألوان الساحرة المحببة لا ذلك إلا لأن ألوانها البديعة تحمل النفس إلى ما لا أدرى من أودية الأحلام والخيال . وعلى ذلك فكل رسم وكل ألوان منسجمة تؤدى معنى بحيث لا يصبح لها جمال بدونه ... وهنا قاطعته قائلا :

« ولكن ألا تخشى الحط من قيمة الصنعة فى الفن ؟ »

ومن يقول لك باحتقارها أو بالإقلال من شأنها ؟ ليست الصنعة إلا وسيلة . ولن يبلغ الفنان الذى يهملها غايته التى هى التعبير عن الشعور والأفكار . ويكون مثل هذا الفنان مثل السائس الذى نسى أن يعلف جواده الشعير .

ومما لا مشاحة فيه أنه إذا كان الرسم ضعيفاً ركيكا واللون مزيفاً مسيخاً ، فلا يمكن والحالة هذه أن تجد أقوى العواطف سبيلا إلى الظهور والأفصاح . قد يبعث التشريح الخاطئ على الضحك على حين يرغب الفنان أن يكون جدّ مؤثر . ويرتكب اليوم كثير من أحداث الفنانين هذا العيب الشائن ، ويحوجهم ضعفهم وقصورهم فى كل مناسبة لأنهم لم يدرسوا الدرس الكافى . قد تكون مقاصدهم سليمة ، ونياتهم حسنة ، ولكن ذراعا قصيرة قصراً ظاهراً ، أو ساقاً غير مستقيمة ، أو منظورا مختلا مشوهاً — كل ذلك من شأنه أن يجعل الرائى يصد عن رؤيتها ويشيح بوجهه عنها .

وقصارى القول لا يمكن أن يغنى الهام مفاجىء عن العمل الطويل الذى لا غنية عنه لإكساب العين القدرة على الإلمام التام بالشكل والنسبة ، ولجعل اليد تنصاع لأوامر الشعور وتجرى مجراه

وعند ما أقول بأن الصنعة يجب أن تتناسى فلا أعنى أو يدور بخلدى قط أن الفنان يستطيع أن يزاول عمله من غير إلمام بالعلم ، وأرى على النقيض من ذلك أن لا غنى له عن طريقة شاملة يخفى تحتها ما يبطن ويعلم . ولا غرو فإن أبرع رجال العالم فى نظر السوقى الجاهل هم بعض المشعوذين الذين يرسمون بضعة خطوط شاذة ، أو يأتون بألوان شبيهة بالألعاب النارية المدهشة ، أو هم الذين يكتبون جملا طويلة منمقة حشوها الغريب من الألفاظ . ولكن الصعوبة كل الصعوبة ، وأساس الفن الصحيح هو أن ترسم أو تصور أو تكتب بسهولة وبساطة .

إنك لتشاهد صورة أو تقرأ صحيفة فلا يستوقفك الرسم أو اللون أو الأسلوب ، ولكنك تشعر بالتأثير العميق فى نفسك من غير أن تخشى الوقوع فى غلطة ، فالرسم واللون والأسلوب كلها كاملة من الناحية الفنية ... فقلت له :

ألا يمكن مع هذا يا أستاذ أن تكون بعض الأعمال العظيمة الخالدة ناقصة من ناحية الصناعة الفنية ؟ ألم يقولوا مثلا إن ألوان رفائيل تغلب عليها الرداءة غالبا ، وإن رسم رمبراند لم يسلم من الغمز واللمز ؟ فقال :

صدقنى إن هذا خطأ صراح . فإذا كانت قطع رفائيل تسر النفس فما ذلك إلا لأن كل شىء فيها — من لون ورسم — يمد هذا السرور بمعين . انظر إلى سان جورج الصغير باللوفر ، وإلى پارناسس بالفاتيكان ، وإلى رسوم الستائر فى سوث كنسنجتن (South Kensington) ، انظر إلى كل هذه تر الإنسجام فيها ساحراً أخاذا . نعم ، تختلف ألوان سانزيو عن ألوان رمبراند ولكنها تلائم الهامه كل الملاءمة ، إنها صافية نقية كصنعة القرط . إنها تبدى انسجامات مفرحة ، طلية زاهرة . إن لها شباب روفائيل الخالد . إنها لا تبدو حقيقية ، وذلك لأن الحقيقة التى كان يراها نابغة أوربينو ليست حقيقة مادية فحسب ، بل كانت دنياه دنيا شعور حيث تستحيل الأجسام والألوان بنور الحب . ولا غرو إذا قال أحد علاة الواقعيين بأن ألوانه غير صحيحة ، أما الشاعر فيراها صادقة .

ولو قورنت ألوان رامبراند أو روبنز برسم رفائيل لبدت الأولى جافية بشعة ، ما فى ذلك من شك .

ومع أن رسم رامبراند يختلف عن رسم رفائيل فهو لا يقل عنه جودة . فخطوط رفائيل حلوة نقية ، أما خطوط رامبراند فخشنة متعرجة . كانت مخيلة الفلمندى العظيم متأثرة بالثياب الخشنة ، والوجوه الفظة الجعدة ، وبأيدى الطبقة الفقيرة المنحلة الدرنة . وما كان الجمال عنده إلا التباين بين حقارة الغلاف المادى الخارجى والإشعاع الروحى الداخلى . وإلا فكيف كان يتسنى له أن يعبر عن هذا الجمال المؤلف من بشاعة مادية ظاهرة ومن سمو نفسانى رائع إذا ما حاول أن يجارى رفائيل فى أناقته ؟ ينبغى أن تدرك أن رسمه كامل متقن إلى أبعد حدود الكمال والإتقان لأنه يتفق تمام الإتفاق مع خلجات نفسه وأفكاره فقلت :

وعلى ذلك قد نفهم من قولك إنه من الخطأ الاعتقاد بأن الفنان لا يستطيع أن يكون بارعا فى فن الألوان ورساما عظيما فى آن واحد

فقال : ما فى ذلك من شك. وأنا لا أدرى والله كيف رسخت هذه الفكرة فى الأذهان إلى هذا الحد . فإذا كان عظماء الفنانين فصحاء بلغاء ، وإذا كان فى مقدورهم أن يملكوا أعنة نفوسنا ويذهبوا بنا كل مذهب ، فما ذلك إلا لأنهم يملكون كل وسائل التعبير التى تلزمهم . لقد برهنت لك على ذلك من لحظة بحالتى رفائيل ورامبراند . ويمكن تطبيق مثل هذه الأدلة على جميع عظماء الفنانين. فمثلا اتهم البعض دلاكروا بجهله أصول الرسم ؛ أما الحقيقة فعلى النقيض من ذلك تماما ؛ فإن رسمه يتمشى تمشياً معجباً مع ألوانه . فهو مثلها وعر متقطع ، محموم ، سام ، مترع بالحيوية والعواطف القوية . وهو مثلها يجنح إلى الغلو والجنون أحيانا وعند ذاك يبدو أجمل وأروع ما يكون ... إن الرسم واللون شىء واحد ولا يمكن أن يعجب بالواحد دون الآخر .

ولقد يغرر أنصاف النقاد بأنفسهم حينما يفرضون وجود ضرب واحد من الرسم فقط هو رسم رفائيل أو حتى رسم من هم دونه من مقلديه أمثال داثيد وأنجر . وحقيقة الواقع أنه يوجد من ضروب الرسم والألوان بقدر ما يوجد من الفنانين .

يقال عن ألوان البرخت دورر (Alb echt Durer) إنها صلبة جافة ، وليست كذلك بتاتا . إن دورر جرمانى ، فهو يعمم ولا يخصص ، وترى تراكيبه الإنشائية محكمة مدعمة كالحقائق المنطقية ، وأشخاصه جامدة كما ينبغى أن تكون . وهذا يفسر لنا دقة رسمه البالغة ، وكيف جاءت ألوانه مكبوتة محدودة .

« وينتمى هولبين (Holbein) إلى نفس المدرسة ، فليس لرسمه شىء من الرشاقة الفلورنتينية ، ولا للونه الجمال البندقى[1] .

ولكن لخطوطه وألوانه قوة ورسوخ ومعنى باطنى ، وهذه صفات قد لا تتوفر لأى مصور آخر .

ويمكن أن يقال إجمالا عن فنانين حريصين مدققين كمن ذكرت : إن رسمهم غير مرن وإن ألوانهم باردة جافة جفاف الحقائق الرياضية ؛ كما يمكن أن يقال على النقيض من ذلك عن البعض الآخر الذين هم شعراء الوجدان أمثال رفائيل وكوريجيو (Corregio) وأندريا دل سارتو (Amdrea dil Sarto) إن خطوطهم أكثر طراوة وليونة ، وألوانهم أوفى رقة وجاذبية . أما فى غير هؤلاء ممن نسميهم «الواقعيين» أى أولئك الذين هم أقل عمقاً فى الشعور والحس أمثال روبنز وفلاسكويز ورمبراند فنرى أن لخطوطهم جمالا حيا له قوة وروعة ، وهدوء وسكون . أما ألوانهم فتقوى أحياناً حتى لكأنها أخذت من أشعة الشمس ، أو تخبو أحياناً أخرى فتبدو كأنها الحيد أو الستر الشفيف .

وعلى ذلك قد تختلف طرائق التعبير عند توابع الفنانين باختلاف نفوسهم . ويكاد يكون مستحيلا على المرء أن يقرر بأن رسم ولون فريق منهم أحسن أو أفضل من رسم ولون الفريق الآخر » . فقلت :

— « إنى أدرك ذلك يا أستاذ ؛ ولكنى أراك لا تفكر لحظة فيما تسببه من الإحراج لجماعة النقاد الساكنين عند ما ترفض مبدأ تقسيم الفنانين إلى رسامين وملونين . ولكن يسرنى أن أفهم من قولك إن هناك طريقة جديدة لمن يرغب ذلك من مريدى التقسيم ، فأنت تقول إن الرسم واللون ليسا سوى وسيلة ، وإن روح الفنان هى العامل المهم الذى يعنينا . وعلى هذا يمكن أن نضع المصورين فى جماعات تختلف باختلاف أمزجتهم . فالبرخت دورر مثلا يقرن بهولبين ، لأن كليهما منطق . ويوضع رفائيل وكوريجيو وأندريا دل سارتو الذين ذكرتهم فى قسم تغلب عليه العاطفة والحس ، ويأتى هؤلاء فى طليعة المحزونين الذين يشبهون بشعراء المراثى . وثم قسم آخر يشمل أولئك الفنانين الذين يعنون بالوجود وبالحياة اليومية يكون من أقطابه الثالوث المؤلف من روبنز وفيلاسكويز ورمبراند . وأخيرا يؤلف بعض الفنانين أمثال كلود لورين وتيرنر قسما رابعاً ينظر إلى الطبيعة كأنها رؤى وضاءة آبقة » .

فابتسم رودان وقال :

« أرى أن لا داعى لمثل هذا التقسيم الذى قد يكون أقرب إلى الصواب والعدل من ذلك الذى يقسم الفنانين إلى رسامين وملونين . وعلى كل حال فإن أى تقسيم من هذا النوع مصيره إلى الفشل ، وذلك لتعقد الفن أو بالأحرى لاختلاف النفوس الإنسانية التى تتخذه لغة للتخاطب والتفاهم . وعلى ذلك فغالباً ما يكون رامبراند شاعراً سامياً ورفائيل واقعياً صرفا

دعنا نروض أنفسنا على فهم عظماء الفنانين . دعنا نحبهم ، ولنقصدهم لنستلهمهم ونستوحيهم ، ولكن فلنكف عن وضع بطاقات عليهم كتلك التى نضعها على العقاقير فى مخازن الأدوية

دكتور محمد بهجت
قسم البساتين

(١) نسبة إلى مدينة البندقية